المشرق

ترقّي التواصل بسرعة التراسل

لجناب الاديب ميشال افندي الياس سماحه

خُلق الانسان ألوفاً محبًّا لبني جنسهِ لا يستغني عنهم في اشغالهِ وحاجاتهِ. وانَّما كانت عيشة الأُلفة قريبة الاسباب سهلة الموارد لمَّا كان البشر قليلين تضمُّهم بلاد واحدة ويجمع كلمتهم سيّد هو رأسهم وعضدهم

ثمَّ انَّ بني آدم ما لبثوا ان نموا بعد حينٍ وتزايد عددهم حتى اضطرَّهم الامر الى ان يضربوا في البلاد ويسكنوا اقطارًا قاصية وجهات نازحة ثم توفَّرت اسباب العمران على قدر نموّ الشعوب وحسن تدبير ملوكها وعقول اصحابها واحوال البلاد التي حلُّوا في ربوعها وكثرت حاجات الانسان الماديَّة والادبيَّة فكان لا يرى بُدًّا من سدّها فلا يمكنهُ ذلك الَّا بمساعدة اخوانهِ ممَّن ترحت بهم الدار وشطَّ بينهم المزار. فكان ذلك داعياً ليجد البشر طرقاً للتواصل ووسائل للتراسل تروج بها اشغالهم وتنتظم احوالهم

وهذه اسباب الالفة والتواصل لم تزل منذ الاعصار الغابرة من اهمّ عوامل الترقي وقد زاد خطرها في الاجيال الاخيرة وعليهِ قد عُني اصحاب البحث والتنقيب بتحسين طرائقها وايجاد اختراعات جديدة لتيسير فوائدها حتى بلغت مبلغاً كاد ينفي المسافات

وها نحن نتتبَّع تاريخ التراسل البشري ليرى القرَّاء بنظرةٍ واحدة وفي صفحات قليلة ايَّ شأو ادركهُ المرء بعقلهِ وكيف توصَّل الى ان يجمع شتات الشعوب ويوفّر بينهم

اسباب الوداد والألفة . وزيادةً بالايضاح نذكر اوّلًا التراسل البرّيّ ثم التراسل المائي ثم التراسل الهوائي ونفرد من بعد ذلك فصلًا للتراسل الكهربائي

التراسل البرّيّ

١ السعاة والبريد

اوّل ما فطن اليهِ عقل البشر اتّخاذ الرُّسل لينقلوا من أُسرةٍ الى أُخرى ومن بلدٍ الى آخر الامور التي ارادوا تبليغها فكان السُّعاة ينقلون الاخبار امّا شفاهًا قبل شيوع الكتابة وامّا خطًّا بعد ذلك . ثم قُسم السُّعاة قسمين قسم منهم مشاة وقسم خيّالة

فكان المشاة يعتادون المشي منذ نعومة اظفارهم فيقطعون المسافات البعيدة عدوًا وقد اشتهر بذلك الصينيون ثم المشاة المصريّون وكان منهم من يجاري الخيل ركضًا . وقد اتّخذ العرب السعاة لنقل رسائلهم فكان عُداتهم ينهبون الارض نهبًا بقوّة عدوهم وسرعة انتقالهم . وكان قدماء السعاة يحملون الرسائل في خرائط من جلد يعلقونها في اكتافهم فاذا وصلوا بلدةً نادوا القوم باعلى صوتهم او دقّوا النفير تنبيهًا لاهلها على ورود البريد

على انّ السعاة مع سرعة عَدْوهم لا يبلغون في الغالب ما تبلغهُ الخيل . وعليهِ فقد استعاض الناس بالرُّسل الخيّالة لنقل اخبارهم فاتّخذوا لذلك قومًا من الفرسان يحسنون ركوب الخيل وجعلوا لهم مراكز يبدلون فيها جيادهم فلا يزالون ينتقلون من مكان الى آخر بخفّة غريبة وذلك هو اصل البريد المعروف في ايّامنا بالبوسطة وهي كلمة لاتينيّة معناها المركز او المقام . ويُقصد من البريد خدمة الحكومة رسميًّا لنقل الرسالات المتداولة بين الناس

وقد ذهب ديودورس المؤرخ انّ البريد كان منظّمًا منذ عهد الاشوريين والبابليين وقد عرفهُ الفرس واليونان والرومان . وكان امرهُ مشهورًا عند العرب . قيل ان اوّل من اتّخذهُ عندهم معاوية بن سفيان . قال ابن الطقطقي : « ابتكر معاوية اشياء لم يسبقهُ احد اليها منها انهُ وضع البريد لوصول الاخبار بسرعة » . وسار الخلفاء على ذلك . وفي قصّة رواها الأتليدي (مجاني الادب ٢ : ١٨٩) انّ بريد الرشيد كان يقطع المسافة بين دمشق وبغداد بستّة ايّام . وكذلك كان البريد يسير بين مصر ودمشق على طريق غزّة

فيقطع هذه المسافة في مدَّة لا تتجاوز الستين ساعة. وكان التراسل بين الحاضرتين في ايَّام الملك الظاهر بيبرس مرَّتين في الاسبوع والخيَّالة تبدل خيلها في نقط معلومة تبعد الواحدة عن الاخرى اربعة فراسخ

ولم تزل اعمال البريد تزيد انتظاماً وتحسُّناً حتى ايَّامنا هذه حيث بلغت في البلاد المتمدّنة كمالها. وكثيرًا ما تعقد الدول الكبرى مؤتمرات لسدّ ما يطرأ من الخلل على البريد. اشهرها مؤتمر بَرْن سنة ١٨٧٤ وفيهِ أُعلن بالاتحاد العام للبريد بين الدول فانضمَّت اغلب الحكومات الى معاهدة هذا المؤتمر حتى حكومتا العجم والهند. ومنذ ذاك الحين ترى اعمال البريد تترقّى عاماً بعد عام فتزداد اتّساعاً وانتظاماً وتسهيلاً لاسيَّما لنقل المراسلات التجاريَّة التي عليها الآن قوام النجاح وركن الترقي الحاضر في العالم المعمور

٢ القوافل

ومن اقدم اسباب التواصل البرّيَّة القوافل تُتَّخذ لنقل الغلاَّت والسِلَع ومرافق البلاد. واذا تصفَّحت تواريخ الشرق وجدت القوافل تتنقَّل بين اقاصي الامصار واطراف البلاد منذ بدء التمدُّن البشريّ لانَّ قوام التجارة انَّما كان منوطاً بهذه القوافل التي كانت تحمل محصولات الشرق الأقصى والهند وتركستان الى العجم فالعراق فالجزيرة فالشام فمصر لاسيَّما قبل ترقي فنّ الملاحة اذ لم يقوَ البشر على خوض البحار فانَّ القوافل كانت الواسطة الكبرى للمعاملات التجاريَّة تقطع البراري ذهاباً واياباً لا تني مع ما يتصدَّى لها من العوائق

وكان يترأس في الغالب هذه القوافل رجال اشدَّاء محنَّكون على الاسفار عارفون بالبلاد وطباع اهلها ولغاتهم ذوو مالٍ واسع يملكون عدداً وافرًا من النوق والبعران. وقد اشتهر في قيادة القوافل عرب البادية وبالخصوص الاسماعيليُّون كما يظهر من قصَّة يوسف الذي باعهُ اخوتهُ لقافلة منهم كانوا سائرين الى مصر بجمالهم المحمَّلة نكعةً وبلسانًا ولادنًا (تكوين ٣٧: ٢٥). ويذكر سفر الملوك الثالث قوافل سليمان التي كانت تأتي الى اورشليم بمعادن اليمن ومرافق الجزيرة. وكان لهذه القوافل مراكز يحتلُّونها كانت لها بمثابة محطَّات تجاريَّة كقرقيسيا وحلب وتدمر (راجع مقالة الاب رنزفال في زينب او الزبَّاء ملكة تدمر. في المشرق ١: ٤٩٨)

والقوافل لا تزال حتى يومنا هذا تؤدي للمجتمع الانساني الخدم الجمَّة في البلاد التي لم تُمدّ فيها بعد الاسلاك الحديديَّة كمجاهل افريقية وصحاري المغرب ومفازات ما بين النهرين واقفار جزيرة العرب وبوادي الشام والاناضول وذلك ريثما يقوم البخار مقام الجمال والدوابّ فيغلبها بسرعتهِ ورخص اسعار نقلهِ

٣ العجلات والدرَّاجات

لمَّا ترقَّى الانسان في معارج المدنيَّة ورأى ما في التواصل من الفوائد العظمى بحث لهُ عن وسائل أُخرى لتسهيل معاملاتهِ وسرعة انتقالهِ من بلدٍ الى آخر فدلَّهُ عقلهُ الوقَّاد على الدواليب وحركتها السريعة اذا ما دارت على ارضٍ سويَّة فوثَّر لذلك الطرق واجال عليها العجلات تجري بها الخيل المطهَّمة. وقد جاء ذكر العجلات واوصافها وتصاويرها بين آثار المصريّين التي ترتقي الى نحو اربعة آلاف سنة قبل المسيح. وكذلك عرفها البابليُّون وكانوا يتَّخذونها لحروبهم. وفي سفر التكوين انَّ يعقوب نزل الى مصر راكباً على العَجَل التي بعث بها فرعون لتحملهُ هو ونسلهُ (تكوين ٤٦: ٦). وكان للعجلات في كل آن مقام عظيم بين الشعوب المتمدّنة لمنافعها الوافرة التي لم تفقدها حتى يومنا مع كثرة الاختراعات التي زاحمتها. ومن هذه العجلات ما يجرُّهُ الدوابّ المعروفة ومنها ما يسيّرهُ الكلاب وفي البلاد الشمالية اشكال تربّى لهذه الغاية وبالخصوص لسحب المزالج فوق الجليد. وكذلك ايائل الشمال المعروفة بالران (rennes)

ومما يلحق بهذا الباب اختراع جديد فاز بنجاح كبير منذ بضعة اعوام وهو الدرَّاجات التي يركبها الراكب فيحرّكها بقدميهِ ويجري بها جريًا سريعاً حتى انهُ يباري البخار نفسهُ. وقد انتبه ارباب الجيش الى منافع الدرَّاجات فاتَّخذوا لها قوماً من الجنود يركبونها في اوان الحرب فيجسُّون اخبار العدوّ ويؤدون لجيشهم خدماً لا يقوم بها غيرهم الَّا بالمشقَّة كنقل الانباء البرقيَّة ومساعدة الجرحى وغير ذلك

٤ القطار الحديدي

هو ابن اليوم وملك الغد لم يمضِ على اختراعهِ قَرْنٌ تامّ وتراهُ الآن يسير في اكثر البلدان تطنُّ لصفيرهِ الآذان ويطرب لمنظرهِ الجنان اذ انَّ استنباطهُ من اخطر الاعمال الانسانيَّة وانفع الاختراعات العصريَّة كيف لا وقد مهَّد طرق المواصلات وقرَّب الأقطار

النازحة ورفع عن كاهل الانسان وعاتق الحيوان ما كانا يكابدان في نقل الاحمال من شدَّة الأتعاب وطول الاسفار وضنك الاحوال وذلك بسرعة غريبة حتى انَّ البعض قدَّروا بانَّ السكَّة الحديديَّة يمكنها ان تطوف حول كرتنا الارضيَّة باحد وعشرين يوماً ولو اقتضى لساعٍ ان يقوم بذلك ماشياً على قدميهِ مشياً متواصلاً لما قطع هذه المسافة باقل من احد عشر شهراً

وقد انتشرت خطوط السكك الحديديَّة في العالم انتشاراً عظيماً ويؤخذ من تقويم سنة ١٩٠٠ انَّ مجموع الخطوط المنتشرة على الارض بلغ ٧٩٤,٠٠٠ كيلومتر. وأملنا وطيد بانَّ بلادنا تنال منها حظاً وافياً بامتداد الخطّ البغدادي الذي بوشر بهِ مؤخراً وبالخطَّين الحجازي والحيفوي الذين يُعدَّان من اعظم آثار الذات الشاهانيَّة أيدهاالله

والى السكك الحديديَّة تُعهد اليوم منقولات البريد وسلع التجارة لا يُخاف عليها نيران الشمس الحارقة ولا ثلوج الجبال الشاهقة فضلاً عن كونها في مأمن من اللصوص وكثير من آفات الدهر

ويلحق بالقطار الحديديّ مراكب الاوتوموبيل التي افرد لها المشرق مقالةً خصوصيَّة فعليك بها (المشرق ٣: ٢٣ — ٢٧)

التراسل المائي

١ النارجيل وجلد الحيوان والصناديق

ما عمّ الانسان ان وجد في الماء مساعداً على نقل اخبارهِ واسباب تواصلهِ ببني جنسهِ. قيل ان الهنود كانوا اذا ارادوا ان يرسلوا خبراً الى بلد يعمدون الى النارجيل (الجوز الهندي) فيجعلون ضمنهُ كتبهم ويسدُّونهُ سدًّا محكماً ثم يلقونهُ في الانهار فيسير بهِ الماء حتى يدرك حواجز مرصودة لهُ فهناك يلتقطهُ مراقبوهُ فيأخذونهُ ويبلّغونهُ اربابهُ بختمهِ. يُحكى عن الاسكندر انَّهُ وجد على انهار الهند شيئاً من هذه الرسائل فلم يدرك سرَّها حتى اطلعهُ على مضمونها احد قوادهِ المشهورين بالذكاء فكسر نارجيلةً منها امامهُ بحضرة جنودهِ فاراهُ ما تحتوي من الرسائل

وكان التراسل المائي شائعاً عند القرطجنيين الَّا انَّهم كانوا يتخذون لذلك جلود

الحيوان فينفخونها ويجعلون في جوفها رسائلهم ويلقونها في الانهر فتطوف على وجه الماء وتسير مدفوعةً بالتيّار

وحكى بلينيوس المؤرخ انَّ الرومـان ايضًا اخترعوا طرقًا شتّى للتراسل المائي فاستغنوا بذلك عن البريد. وكان غيرهم من الشعوب يتخذون صناديق محكمة القفل ويثقلونها باثقال معلومة بحيث لا ترسب فتُفقد ولا تطوف على وجه الماء فتقع في ايدي الغرباء. فكانت هذه الصناديق تسير في مجرى الانهار حتى تُدرك السدود فينقلها المراقبون الى اصحابها

٢ الأطواف

ثم حاول الانسان ان يركب هو متن العباب لينتقل محمولًا فوقهُ من بلدٍ الى آخر. والمرجَّح انَّهُ باشر اوَّلًا الامر بالاطواف (الكلك) وهي عبارة عن قِرَب يُنفخ فيها ويُشدّ بعضُها الى بعض فتصير على هيئة السطح وكثيرًا ما يُجعل فوقها الخشب وتُعَبّى عليها الأثقال فتجري المياه بها وبمن عليها من الركاب وربَّما استعانوا بالمقاذيف لتعجيل سيرها وتنظيمهِ. وفي تصاوير خرساباذ ترى قومًا من العرب ينفخون القِرَب ليطوفوا عليها وهذه الصور يتجاوز عهدها ثلاثة آلاف سنة وفي ذلك دليل على قدم استعمالها. وهي اليوم تُتَّخذ كما في سابق الزمان فينحـدر اهل العراق راكبين الطوف من دياربكر الى الموصل الى بغداد الى البصرة واذا بلغوا حيث شاؤوا فكُّوا الاطواف وباعوا الاخشاب واخذوا القِرَب فحمَّلوها الجمال ورجعوا بها الى بلدهم

٣ المراكب

غير انَّ بني آدم لم يكتفوا بالاطواف وهي لا تفي بحاجتهم الَّا في بعض الاحوال ولذلك اصطنعوا لهم الزوارق والقوارب وجعلوا لهـا المقاذيف وانتقلوا من مدينة الى اخرى تابعين سواحل المدن البحريَّة. ثم زادت ثقتهم بنفسهم فكبَّروا القوارب واتَّخذوا المراكب الشراعيَّة فساروا الى البلاد المجاورة ثمَّ خاضوا معامع اليمّ واستعانوا في سيرهم بتواميس الكواكب الى ان ارشـدهم الله الى سرّ الابرة المغناطيسيَّة فلم يخافوا ان يوسّعوا نطاق اسفـارهم حتى بلغوا اقاصي المعمور واكتشفوا عالمًا جديدًا على يد خريستوف كولومبوس الاسباني سنة ١٤٩٢

وكان للفينيقيين ومواطنيهم في ترقي الملاحة اليد الطولى وقد جاء ذكر سفنهم في كتابات يرتقي عهدها الى الفي سنة قبل المسيح وفي المشرق (١:٢١٧) نبذة طيّبة للاب دي كوپيه اليسوعي في تاريخ الملاحة الشرقية نحيل اليها القرّاء اظهر فيها الكاتب البارع ما كان لشعوب الشرق عموماً وللفينيقيين خصوصاً من الفضل في فنّ الملاحة وكان لهم عمائر بحريّة يلتجئ اليها فراعنة مصر لمحاربة اعدائهم ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة في القرن الخامس عشر قبل المسيح

ثم جاء اليونان والرومان والعرب ثم اهل البرتغال والاسبانيُّون ثم الهولنديُّون والفرنسيُّون والانكليز وكان كلٌّ منهم يخطو خطوةً في تحسين السفن الشراعيَّة حتى امكن ماجيلان ان يطوف حول الكرة الارضيَّة بمركبهِ سنة ١٥١٩. وفي سنة ١٧٨٣ اخذوا يصفّحون المراكب بالنحاس بدلًا من الرصاص فزادت المراكب خفَّةً ومتانةً

وكان ملّاحو السفن يقومون بحاجات العامّة فينقلون بلاغاتهم ورسائلهم وذلك جزاء اجور باهظة كانوا يتقاضونها كما يشاؤون وكثيرًا ما كانت مدَّة اسفارهم تطول شهورًا بل سنين من جرّاء الانواء ومعاكسة الرياح حتى تضيع الفائدة المقصودة من التراسل

ولمّا كانت سنة ١٨٠٧ دخلت الملاحة في طور جديد باكتشاف جمس واط السكوتلندي الآلةَ البخاريَّة فسارت السفن يدفعها البخار الى اقاصي البلاد تسير سيرًا منتظماً بسرعة تزيد يوماً بعد يوم حتى صارت المراكب البخاريَّة تقطع حالًا المسافة بين ليڤربول ونيويرك باقل من خمسة ايّام

وخدمة السفن التجاريَّة للتواصل والتراسل مشهورة فانّها لا تنقل فقط البضائع ومحصولات البلاد بل تنقل البريد والرسائل بانتظام عجيب لاسيَّما بعد معاهدة البريد بين الدول سنة ١٨٧٤ كما مرَّ خبر ذلك سابقًا فاتّفقت الحكومات مع الشركات الخصوصيَّة وعهدت اليها نقل المراسلات وكلَّ اعمال البريد

التراسل الهوائي

١ الاصوات والابواق والطبول

انَّ البرّ والماء من اسباب التواصل العظيمة الّا انّهما لا يُقطعان الّا بالمشقَّة

والتعب فينبغي لمن كان وصلةً بين المتراسلين ان ينتقل من محلّ الى آخر. وقد سعى البشر بان يسدّوا هذا الخلل بالتراسل الهوائي. واوّل ما فكّروا فيهِ لذلك الاصوات البشريّة فكانوا يقيمون رجالا على قمم الجبال يلقون بالاصوات الصارخة فيتلقّاها الواحد من الآخر حتى ينتهي الامر المقصود الى اصحاب المركز الاخير. وقد شاع ذلك في قرنا على مشارف لبنان فان اهلهُ يتناقلون الاخبار من قرية الى أُخرى بوقت قريب اذا ارادوا

وقد اتّخذ بعض الشعوب النفير والابواق لاعلان الامور وحشد القوم. وهكذا كان يفعل بنو اسرائيل فانَّ موسى النبي عهد الى فئة منهم بان يدقُّوا الابواق ليُنذروا ببعض الامور الخطيرة كالاعياد واليوبيل والحرب الى غير ذلك. ولا يزال النفير يستعمل حتى يومنا بين الجنود وعلى السُّفن الحربيَّة. وكذا قل عن الطبول فانّها كانت من ادوات الإنذار لاسيَّما في الامكنة القريبة

ومن الاصوات المستحدثة لنشر بعض الاخبار والاشارة الى امور معهودة اطلاق المدافع كما يجري في عرض البحار عند اليأس الشديد وطلب النجدة. ومثلهُ قرع الاجراس في المدن الكبرى عند الحريق او الانذار بخطر. وكذلك الصفير البخاري كما في القطارات الحديديَّة والسفن

٢ الرايات والاعلام

ومن العلامات الهوائيَّة للتراسل وتبليغ الأنباء الرايات والأعلام تُنصب في الامكنة العالية بحيث يطَّلع عليها من يرصدها فهذه الرايات تدلُّ بالوانها الناصعة على امور اصطلح عليها القوم فاذا نُشرت ادرك الناس معناها فتنبَّهوا لاسرارها. وقد أَلِف ارباب السُّفن هذه العادة فتراهم يعلنون لمن بَعُد عنهم امورًا كثيرة بواسطة هذه الرايات والوانها وكيفيَّة وضعها

وقد استعاض غيرهم عن الرايات باعلام خشبيَّة فيها شبه اليدَين تتحرَّكان بسرعة بواسطة مفتاح وتدلّان بحركاتهما على امور شتَّى وربَّما تعدَّدت هذه الاشارات حتى امكن الدلالة بها على حروف الهجاء وتركيب الجمل. ويُرى مثل هذه الاعلام حتى يومنا في بعض جبال فرنسة وانكلترة وسويسرة. وهي تقام عند محطَّات السكك الحديديَّة وفي البوارج الحربيَّة وغيرها

٣ النيران

ان الرايات السابق ذكرها لا تصلح الّا للنهار اما الليـل فقد عمد القدماء الى النار فكانوا اذا شاؤوا ابلاغ حادثٍ من بلد الى آخر يضرمون النيران على الروابي واعالي الجبال وكان الاهلون يقابلونهم بالمثل من الجهة الموازية فتحصل بذلك الفائدة المقصودة وتُعرف الاخبار بزمن قريب بين المسافات البعيـدة. وهذه النيران قد كثر استعمالها عند الامم القديمة كالاشوريين والفرس واليونان والرومان. وكان للعرب نيران مثل هذه يتراسلون بها منها نار الأُهبة كانوا يوقدونها على جبالهم اذا ارادوا حربًا او توقّعوا امرًا فيبلّغون الخبر بذلك. ومنها نار القرى او الضيافة توقد على رؤوس الآكام ليراها الضيوف عن بُعد فيقدمون الى بيوت الكرماء. ومما اخبر بهِ صاحب تاريخ بيروت (ص ٦٠) انَّ في أيام السلاطين العظام كانوا « قرَّروا اعلامًا نارية تصل الى دمشق في ليلة فكانوا يشعلونها من ظاهر بيروت فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة ومنهُ الى جبل بوارش ومنهُ الى جبل يبوس ومنهُ الى جبل الصالحيَّة ومنهُ الى قلعة دمشق »

٤ حمام الزاجل

حمام الزاجل او الزجّال هو حمام البطاقة وحمام الرسائل من قولهم زجلهُ اذا ارسلهُ على بُعد وهو من الوسائل التي شاع استعمالها في الشرق للتراسل بين البلاد البعيـدة. وذلك من عهـد قديم. وقد اخبرت التوراة انَّ نوحًا اطلق الحمامة من فلكهِ دفعتين فعادت اليـهِ وفي فيها غصن الزيتون استدلَّ بهِ على انتهاء الطوفان

وقيل انَّ الرومان اوَّل من سبق واتَّخذ الحمام الزاجل لنقل الرسائل فكانوا يأتون بهِ الى رومة عند مجيئهم لحضور حفلات سباق العجلات ثم يصبغونهُ بالوان تشير الى الاحزاب الرابحة او الخاسرة في الرهان ويطلقونهُ فيعود بسرعة عجيبة الى ابراجهِ حيث كان القوم ينتظرونهُ ليقفوا بذلك على الرابحين

وجاء في تاريخ الرومان انَّ القائد انطونيوس سنة ٤٣ قبل الميلاد في اثناء حصار مدينة مودينه ارسل الى واليها رسالةً علَّقها في عنق حمامةٍ فاعادها الوالي وحمَّلها رسالة الجواب

ويؤخذ من اقوال بلينيوس المؤرخ انَّ الحمام كان يُتَّخذ منـذ زمن قديم لنقل الرسائل . وجاء ذكرهُ ايضًا عند اليونان في العابهم المعروفة بالاولمبيَّة

ولم يُعنَ احد بحمام الزاجل عناية العرب بهِ فانهم طالما استعملوهُ في حروبهم منذ أيام بني اميَّة ثم استخدمهُ الخلفاء من بني العبَّاس ثم السلاطين العظام منهم السلطان سليمان خان الغازي فانهُ كان مولعًا بهِ وقد نظَّمهُ لنقل الرسائل بين دار السلطنة واطراف دولتهِ

وممَّن اشتهر باتخاذ حمائم الرسائل السلطان نور الدين الشهير. اخبر ابن كثير في تاريخهِ أنهُ لمَّا رأى امتداد مملكتهِ واتساعها من حدّ النوبة الى همدان اتَّخذ سنة ٥٦٧ (١١٧٢) قلعـةً وحبس الحمام . فشاع مذ ذاك الحين عن حمام الزاجل من حسن الترتيب بنقل التراسل والسير على خطَّة الانتظام بين مصر والشام ما اكثر من وصفهِ الكتَّاب . واتُّخذت لهذا الحمام ابراج خصوصيَّة يبعد كلُّ برج عن الآخر اثنا عشر ميلًا وعيَّن لهُ عُمَّالًا وحرَّاسًا يراقبون حركاتهِ وطرق سيرهِ وكان التراسل يتمُّ بغاية الضبط والدقة بين الاسكندريَّة والقاهرة ودمياط وغزَّة والكرك والقدس ودمشق وبيروت (راجع تاريخ بيروت ص ٦٠) وحلب حتى الفرات وقد جاء في كتاب حسن المحاضرة للسيوطي (٢ : ١٦٩) فصل في هذا الشأن آثرنا نقلهُ لما فيهِ من الفوائد قال :

وفي سنة ٥٩١ (١١٩٥) اعتنى الخليفة الناصر لدين الله بحمام البطاقة اعتنـاء زائدًا حتى صار يكتب بانساب الطير الحاضر انهُ من ولد الطير الفلاني وقيل انهُ بيع بالف دينار. وقد الف القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في امور هذه الحمام كتابًا سمَّاه تمام الحمام (ويروى تمائم الحمائم) وذكر فيهِ فصلًا فيما ينبغي ان يفعلهُ المنطِّق وما جرت العادة بهِ في ذلك فقال : كان الجاري به العادة انما لا تحمل البطاقة الَّا في جناحها لامور منها حفظها من المطر ولقوَّة الجناح والواجب انهُ اذا انطلق من مصر لا يُطلق الَّا من امكنة معلومة فاذا سُرِّحت الى الاسكندريَّة فلا تُسرَّح الَّا من منية عنبة بالجيزة والى الشرقية . فمن مسجد التين ظاهر القاهرة . والى دمياط فمن بيسُوس بشط بحر منجى. والذي استقرت قواعد الملك عليهِ ان طائر البطاقة لا يلهو الملك عنهُ ولا يغفل ولا يهمل لحظة واحدة فيفوت مهمَّات لا تستدرك امَّا من واصلٍ وامَّا من هاربٍ وامَّا من متجدد في الثغور. ولا يقطع البطـاقة من الحمام الَّا السلطان بيده من غير واسطة احد فان كان يأكل لا يهمل حتى يفرغ وان كان نائمًا لا يهمل حتى يستيقظ بل ينبِّه . وينبغي ان يكتب البطائق في ورق الطير المعروف بذلك . (قال) ورأيت الاوائل لا يكتبون في اوائلها بسملة . (قال) وانا ما كتبتها قط الَّا بسملة للبركة . وتؤرخ بالساعة واليوم لا بالسنين وينبغي ان لا يكثر في نعوت المخاطب فيها ولا يذكر في البطائق حشو الالفاظ ولا يكتب الَّا لبَّ الكلام وزبدته ولا بد ان يكتب شرح الطائر ورنيفه ان كانا طائرين قد سُرِّحا حتى ان تأخر الواحد رقب حضوره او يطلق لئـلَّا يكون قد وقع في

برج من ابراج المدينة. ولا يعمل للبطائق هامش وجرت العادة بان يُكتب في آخرها « وحسبنا ونعم الوكيل » . . . وذلك حفظ لها. (قال) وانَّ عدد الحمام المستعمل للرسائل بلغ في اخر جمادى الآخرة من سنة ٦٨٧ (١٢٨٩) الفًا وتسعمائة طائر وكان بالقلعة في مصر عدَّة من المقدمين لكل مقدم منهم جزء معلوم وكانت الطيور المذكورة لا تبرح في الابراج بالقلعة ما عدا طائفة منها فانَّها في برجٍ بالبرقية خارج القاهرة يُعرف ببرج الفيوم رتّبهُ الامير فخر الدين عثمان بن قزل استادار الملك الكامل محمَّد ابن الملك العادل بن بكر بن ايُّوب وكانت البطائق ترد اليهِ من الفيوم ويبعثها من القاهرة الى الفيوم من هذا البرج وكان في كل مركز حمام في سائر نواحي المملكة مصرًا وشامًا . . . وفيها يقول ابو محمد احمد بن علوي بن ابي العقال القيروانى :

خضرٌ تفوت الريح في طيرانها يا بُعد بين غدوّها ورواحها
تاتي باخبار الغدوّ عشيَّةً لسير شهرٍ تحت ريش جناحها
وكانما الروح الامين بوحيهِ نفث الهداية منهُ في ارواحها

وقال الدميري (١ : ٢٩١) في وصفهِ :

ومن طبع هذا الحمام انهُ يطلب وكرهُ ولو أُرسل من الف فرسخ ويحمل الاخبار ويأتي بها من البلاد البعيدة في المدة القريبة. ومنهُ ما يقطع ثلاثة الاف فرسخ في يوم واحد وربَّما اصطيد وغاب عن وطنهِ عشر حججٍ فاكثر فيبقى على ثبات عقلهِ وقوَّة حفظهِ ونزوعهِ الى وطنهِ حتى يجد فرصةً فيطير اليهِ

امَّا الفرنج فانَّهم لم يعرفوا فضل الحمام الزاجل قبل دخولهم البلاد الشرقية في القرن الحادي عشر وكانت حمامة بطاقيَّة وقعت في خيامهم صدفةً فرأوا معها كتبًا الى العدوّ. ولم يشع بينهم استعمالها الَّا في القرن السابق فانَّ في سنة ١٨٤٠ انشأت شركة هافاس بين لندن وبروكسل وباريس ابراجًا لحمام الرسائل فكان الحمام يقطع المسافة بين لندن وباريس في ٦ ساعات وقد ادَّى الحمام خدمات جليلة للصحافة ولم يُهمل الَّا عند انتشار التلغراف

وقد استعملت الحكومة الفرنسويَّة حمام البطاق في حربها مع بروسية كما ورد ذلك في المشرق (٥ : ١٠٢٧). وكذلك قد استخدمتهُ المانية واعتنت بتربيتهِ وانشأت لهُ ابراجًا على حدودها في قلاع متس وسترسبورغ وغيرهما وعلى دوارعها الحربيَّة. قيل انَّ مجموع ما انفقت الحربيَّة الالمانيَّة لذلك الى غاية سنة ١٨٨٩ خمسة واربعين الف فرنك. وفرنسة تهتمّ اليوم في انشاء ابراج للحمام الساعي لنقل الاخبار بين الجزائر وطولون وكذلك بين وهران واملاكها في داخل افريقية

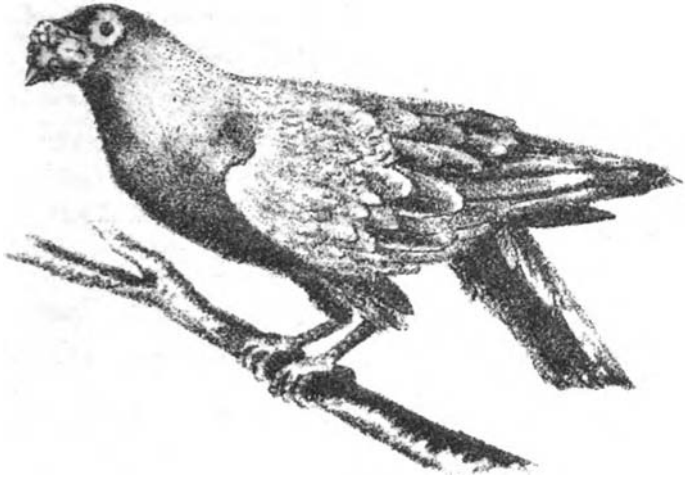

صورة حمامة من افضل اجناس حمام الزاجل (مصوَّرة عن الاصل)

واشهر الحمام المستعمل عند العرب للرسائل الحمام المطوَّق العراقي الابيض العنق ومنهُ اشكال أُخرى ايضاً. وربَّما استُعمل الحمام للسباق والرهان في بعض البلاد. وفي بلجكا يُقام سنوياً معرض لهذا السباق والحكومة تكافئ اصحاب الحمام السابق بجائزة سنيَّة. وفي بلادنا ايضاً قوم مولعون بتربية الحمام نخصّ منهم بالذكر اهل حلب ولهم في ذلك شهرة. وهم يبتاعون الحمام من كفتين وفيها صنفٌ جيِّد من الحمام قيل انهُ من نسل الحمام المصريّ الغالي الثمن الذي كان في أيَّام الخلفاء والله اعلم

• المنطاد

هو المركبة الجويَّة او البالون وقد وصف المشرق غير مرَّة تاريخهُ ومخترعيهِ وترقيهُ وانواعهُ فنكتفي هنا بالاشارة (راجع المشرق ١: ٣١٨ و ٦٠٤ ثم ٢: ٣٨١ و ٨٧٩ ثمَّ ٤: ١٠٩ و ٩٥٧ ثم ٦: ٦٢٣) وما يسعنا هنا قولهُ انَّ المنطاد لا يلبث ان يدخل قريباً في سلك الوسائل النظاميَّة لنقل الاخبار بين بلد وبلد ولا غرو انهُ يزاحم بعد قليل القطارات الحديديَّة والمراكب البحريَّة ويغلبها بسرعتهِ وقلَّة نفقاتهِ وكل آتٍ قريب

هذا نظر عموميّ في اخصّ وسائل التراسل والمواصلات التي استعملها البشر منذ

الزمن القديم الى عهدنا . وقد بقي علينا ان نذكر التراسل الكهربائي وطرائقهُ الّا انَّ هذا يقتضي فصلًا مطوَّلًا نؤجلهُ الى فرصة اخرى

الحلواء

نبذة للدكتور بطرس كُيك مدرس فنّ الصيدلي في مكتبنا الطبيّ وللاب لويس شيخو اليسوعيّ

قرأنا في احد اعداد مجلّة الطبيعة الفرنسويّة (La Nature, 23 Mai 1903, p.398) فصلًا لبعض منشئي هذه المجلّة تحت عنوان « طعـام عربيّ » مدارهُ على الحلواء وقد زعم الكاتب « انَّ هذا الطعام قد تفرَّد بهِ اهل جزيرة العرب وخصوصاً اهل الجنوب منها واهل عمان وجهات مسقط فيصنعونهُ دون غيرهم ويقتاتون بهِ » وهو لعمري قول شطط رماهُ صاحبـهُ على عواهنهِ دون ان يتحقَّق صوابهُ . فان كل من سكنوا الشرق يعلمون بان الحلواء قوتٌ شائع في معظم البـلاد الشرقيَّة كالعجم والعراق والجزيرة والشام ومصر واليمن . وقد انتهزنا هذه الفرصة لنبحث عن تاريخ الحلواء وتركيبهـا وخواصّها

﴿ اسمها ﴾ الحلواء لغةً كل طعام حلوٍ تدخل في تركيبهِ الصنعـة . وقد ورد ذكر الحلواء بهذا المعنى الواسع في كتب العرب الراقية الى زمن الخلفـاء الاوَّلين . فيريدون بهِ مصنوعات السكَّر او العسل مع السَّمن والاقط والسميذ كالفالوذج والقطائف وما شاكلها (راجع فقه اللغة ص ٣١٧) . وقد تصرَّفوا باسم الحلواء فقالوا حَلْوا وحَلْوى بالقصر وجمعوها على حَلاوى . وقالوا حُلْوى على وزن فُعلى مع جمعها على حُلْوَيات . وقالت العامَّة حَلاوة فشاع هذا الاسم حتى ورد على هذه الصورة في كتب الائمـة واصحاب اللغة وجمعوهُ على حلاوات قال الادريسي في وصف دمشق (راجع مجاني الادب ١ : ٢٠٠) : امَّا الحلاوات فبها منها ما لا يوجد بغيرهـا ولا يوصف كثرةً وطيباً وجودةً

على انَّ هذا الاسم الجنسيّ كثيرًا ما يُطلق على طعـام خاصّ قائم بذاتهِ يركَّب على طريقة معلومة مع اختلاف في الكم والكيف . وقد وردت بهذا المعنى في اخبار العرب عن ملوك الفرس اذ يعدّدون مآكلهم فيجعلون الحلواء بينها مع اللوزينج والفالوذج